الفصل الحادي عشر

الخدع والخيانة

أصبح الوضع صعباً بالنسبة للمسلمين في المدينة، فقد أدت هزيمة أُحُد إلى عواقب متعددة، لم يكن أقلها فقد هيبتهم في نظر القبائل المجاورة التي أصبحت تنظر إليهم نظرة مختلفة وتعتقد أنهم ضِعَاف المنعة، وأن وضعهم أصبح ضعيفاً، وتم حشد حملات عديدة ضدهم في محاولة لاستغلال ذلك الوضع، أما محمد ﷺ، الذي كان تأتيه في بعض الأحيان تحذيرات بشأن هجمات مزمعة على المدينة، فكان يرسل رجاله ـ بجماعات مكونة من 100 إلى 150 رجلاً ـ إلى مختلف القبائل لتهدئتهم أو منع عدوانهم، وقد حفلت السنة الرابعة بعد الهجرة (262م) بمثل تلك الصراعات المحلية الطفيفة، والتي عملت مع ذلك على تعديل (وفي بعض الأحيان تثبيت) المخالفات أو ميزان القوى في المنطقة، وكان هذا يشبه نوعاً من لعبة الشطرنج بين قريش ومسلمي المدينة، وكان الطرفان يدركان أن مواجهة واسعة النطاق لابد قادمة، ولم يخف أهل مكة رغبتهم في استئصال الجماعة الإسلامية من الجزيرة، وظلوا -لهذا الغرض- يقيمون التحالفات مع القبائل المجاورة، وكان وضعهم يزداد صعوبة لأن الطرقات التجارية المباشرة في الشمال، المؤدية إلى بلاد الشام والعراق عن طريق الساحل، لاتزال موضع رقابة المدينة وسيطرتها، لذا فقد شعرت قريش بأنه يتعين عليهم اتخاذ إجراءات سريعة وجذرية بغية استغلال هشاشة المسلمين بعد الهزيمة وتحرير الطرقات التي كانت قوافلهم تحتاج إليها في الذهاب إلى الشمال، على السواء.

بنو النضير

أُخذ الكثيرون من المسلمين أسرى في تلك السنوات حيث كانوا يقعون في الكمائن أو يتغلب عليهم أعداؤهم بكثرة عددهم، وكانوا كثيراً ما يعذبون أو يقتلون قتلاً مريعاً، وقد روت الأحاديث شجاعتهم وصبرهم وعزتهم في مواجهة الموت، وفي معظم الأحيان كانوا يطلبون -مثل حبيب- السماح لهم بأن يصلوا ركعتين قبل قتلهم، وكانوا يطيلون تلك الركعات في الدعاء إلى الله الأحد، الذي ضحوا بممتلكاتهم وحياتهم في سبيله، في أحد الأيام، جاء رجل من قبيلة بني أمير واسمه براء إلى النبي ﷺ وطلب منه أن يرسل معه مجموعة من أربعين من المسلمين ليعلموا القبيلة كلها مبادئ الإسلام. وقد أعرب محمد ﷺ، الذي كانت تصله أنباء التحالفات المحلية، عن خوفه من احتمال تعرضهم لهجمات القبائل الأخرى المعادية للإسلام أو التي أبرمت تحالفاً مع قريش. فتعهد له البراء بحمايتهم من قبل بني أمير الذين كانوا يتمتعون بهيبة كبيرة والذين يعتمدون أيضاً على تحالفات عديدة، غير أنه لم يأخذ بالحسبان النزاع الداخلي ضمن عشيرة بني أمير، وقد عمل ابن أخ براء ذاته على قتل دليل مجموعة المسلمين (الذي كان يحمل رسالة من النبي ﷺ)، ثم عندما رأى أن عشريته ستحافظ على عهد الحماية الذي قدمه عمه، كلّف عشيرتين أخريين بقتل مجموعة المسلمين كلها قرب قبر المناح، عدا رجلين استطاعا الفرار حيث إنهما كانا قد ذهبا لإحضار الماء[1]. وقد فضّل أحدهما أن يموت وهو يقاتل، بينما عاد الثاني، وهو عمرو بن أمية، إلى المدينة ليخبر النبي ﷺ بأن رجاله قد قتلوا، وبينما هو في طريقه صادف اثنين من بني عامر ظن أنهما مسؤولان عن الكمين فقتلهما ثأراً للمسلمين،

وقـد شعر النبي ﷺ بالحـزن العميق لما جرى لرجالـه، فقد كان ذلك يدل علـى أن الوضع يزداد خطراً وأن التحالفات والخيانـات كانت تأخذ أشكالاً معقدة وخفية، كان بنو عمرو أوفياء للعهد الذي قطعه البراء ولذا فلم يكونوا هـم المسؤولين عن قتل رجاله، وقرر النبي ﷺ الـذي يلتزم التزاماً شديداً بعهـوده، على الفور، بأن تُدفع دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو خطأً. فقرر الذهاب إلى يهود بني النضير يطلب منهم المشاركة في دفع دية القتيلين، إذ إن ذلـك كان جزءاً مـن اتفاقية المساعدة المتبادلة بينهما، وكان محمد ﷺ يعرف أن بني النضير قد أصبحوا، منذ النفي الذي فرض على بني قينقاع، يشكـون فيه، إن لم يكونوا معادين له وأنهـم أقاموا صلات مع قبائل معادية للمسلمين، لذا فقد كان بالغ الحذر.

فقـام بزيارتهـم مـع أصحابـه المقربـين، بمـن فيهـم أبو بكـر وعمر وعلـي -رضي الله عنهـم-. كان تصرف بني النضير غريبـاً، ولم يفصح زعماؤهـم، ومـن بينهـم حيي، عـن أي خطـوات عملية لدفع ديـن الدية. فغابـوا عن الأنظار فجـأة، بحجة إعداد الطعام وجمـع المبلغ اللازم، وقد شعـر النبي ﷺ بحدسه أن زعماء بني النضـير كانوا عازمين على الشر، فنهض وغادر المكان بهدوء، وظـن أصحابه أنه سيعـود. وعندما لم يعد، غادروا هم أيضاً المكان وتبعوه إلى منزله، حيث أخبرهم عما شعر بحدسه وأنبأهم بأن جبريل أخبره بأن بني النضير كانوا يريدون قتله، وهو ما أكده سلوكهم الغريب أثناء وجـود الوفد المسلم. لقد جعلت خيانة بني النضير، الذيـن كانوا يسكنون ضمن المدينة ذاتها، مـن المتعذر على المسلمين وضع إستراتيجية دفاعيـة، كان على النبي ﷺ أن يتصرف على وجه السرعة.

فأرسل محمد بن مسلمة إلى بني النضير ليخبرهم بأنهم خانوا اتفاقية المساعدة المتبادلة وأن أمامهم عشرة أيام لمغادرة المكان مع نسائهم وأطفالهم وممتلكاتهم، وإلا فإنهم سيقتلون.

شعر بنو النضير بالحزن واستعدوا للمغادرة، لكن عبد الله بن أُبي ابن سلول، المنافق، ذهب إليهم ونصحهم بعدم مغادرة المدينة، وتعهد بأن يقدم لهم مساندته الأكيدة من الداخل، وقد استمع إليه رؤساء بني النضير وأبلغوا محمداً ﷺ بأنهم لن يغادروا المدينة، كان هذا، عملياً، إعلان حرب.

قرر النبي ﷺ على الفور محاصرة الحصن الذي لجأ إليه بنو النضير. وقد دهشوا في أول الأمر من ذلك الإجراء السريع، لكنهم كانوا يأملون بأن يأتي ابن أُبَيّ أو حلفاؤهم، أي قبيلة بني قريظة اليهودية، لإنقاذهم لكنهم لم يأتوا، وبعد عشرة أيام أصبح الوضع لا يطاق بالنسبة لهم، في هذا الوقت قرر النبي ﷺ أن يقطع أطول أشجار النخيل، التي كانت ترى من الداخل، والتي كانت خارج الحصن. وكانت أشجار النخيل أثمن مورد للمدينة. في قطع محمد ﷺ لهذه الأشجار كان يحاول إقناعهم بأنه لن يبقى أي شيء ذو قيمة في المدينة، كانت تلك المرة الوحيدة التي أتلف فيها محمد ﷺ الشجر أو أي شيء آخر في الطبيعة، في الحرب أو في السلم.

كان هذا وضعاً استثنائياً لدرجة أنه نزل فيه وحي صريح: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[2]. ولم يكرر النبي ﷺ أبداً القيام بأي عمل ينطوي على عدم احترام الطبيعة،

وكان يكرر دائماً، كما سنرى، بأن ذلك الاحترام يجب أن يكون تاماً، حتى في زمن الحرب، وقد أكد الوحي الذي نزلت به الآية آنفة الذكر بحد ذاته القاعدة التي وضعت استناداً إلى ذلك الاستثناء الوحيد.

أثبتت هذه الإستراتيجية نجاحاً تاماً، فقد استسلم بنو النضير المحاصرون وحاولوا التفاوض بشأن شروط نفيهم، قبل الحصار كان النبي ﷺ قد عرض أن يدعهم يرحلون مع ممتلكاتهم لكن بني النضير رفضوا. أما الآن فقد أصبحوا في موقف ضعيف، فاستناداً إلى نص تهديدات النبي ﷺ، كان المفروض أن يقتلوا، وعلى أي حال، فقد أصبح السماح لهم الآن بأخذ ممتلكاتهم غير وارد، وقد تجاهل النبي ﷺ تهديده لهم بالقتل وأمرهم بمغادرة المدينة ومعهم نساؤهم وأطفالهم فقط، غير أن زعيم بني النضير، حُيي، حاول مع ذلك التفاوض مع النبي ﷺ فسمح لهم في خاتمة المطاف بالمغادرة مع جميع حاجياتهم وممتلكاتهم التي تستطيع إبلهم حملها، وقد وجدوا ملجأ لهم في خيبر في خاتمة المطاف مع ذلك[3]. فهو لم يقتصر فقط على عدم تنفيذ تهديده، حيث إنه أحجم عن قتلهم، بل سمح لهم بأن يأخذوا كمية كبيرة من ممتلكاتهم. كان محمد ﷺ سمحاً سخياً دائماً ليناً بعد المعارك، رغم خيانات أعدائه وإنكارهم للجميل. وقد كان قد وجد بعض الأسرى الذين عفا عنهم بعد معركة بدر بين أشد أعدائه في معركة أُحُد، وسوف يحدث ما هو شبيه بذلك هذه المرة أيضاً. فبعد بضعة أشهر من السماح لبني النضير بالنجاة سوف يجد بعض زعماء القبيلة وغيرهم من أفراد القبيلة بين الأحزاب الذين كانوا سينضمون إلى قريش بعد بضعة أشهر.

تحسن وضع المسلمين جزئياً، لكن الأخطار ظلت محدقة بهم ومتعددة. فبعد أُحُد كان أبو سفيان قد قال لعمر رضي الله عنه وللنبي ﷺ بأنهم سيتلاقون في العام القادم في بدر، وقد قبل النبي ﷺ التحدي. ولم يكن يريد أن يتراجع عن كلمته، لذا فقد ذهب إلى بدر في جيش من ألف وخمس مئة رجل، وانطلق أبو سفيان مع ألفين من الجنود، لكنه توقف في الطريق وعاد أدراجه، وبقي المسلمون في المكان ثمانية أيام ينتظرون قريشاً، لكنهم لم يظهروا، لقد برّ المسلمون بوعدهم وأدى هذا التقيد بوعدهم وهذه الثقة في وجه التحدي إلى طمأنتهم وتعزيز هيبتهم.

التميز والتفرد

كان النبي ﷺ يكن لأحد صحابته، المدعو بأبي لبابة، احتراماً شديداً لدرجة أنه تركه مسؤولاً عن المدينة عندما انطلق إلى معركة بدر الأولى. وبعد فترة من الوقت، جاء يتيم صغير السن إلى النبي ﷺ يشكو إليه أن أبا لبابة أخذ منه نخلة كانت ملكاً له منذ وقت طويل، فاستدعى النبي ﷺ أبا لبابة وطلب تفسيراً لموقفه، أظهر الاستقصاء أن النخلة كانت ملكاً لأبي لبابة بالفعل، فحكم له بها، الأمر الذي أصاب اليتيم الذي فقد أثمن ما يملكه، بخيبة أمل شديدة، وقد طلب النبي ﷺ من أبي لبابة، بعد أن حكم بالعدل، أن يعطي اليتيم تلك الشجرة التي كانت تمثل له شيئاً عظيم الأهمية، رفض أبو لبابة رفضاً قاطعاً. فقد بذل جهوداً كبيرة لإثبات حق ملكيته حيث إن إمكان الاستجابة لذلك الطلب كان غير وارد بالنسبة إليه، هذا الهاجس غطى على قلبه وعلى مشاعر الرحمة، وقد ذكر الوحي

لاحقاً، على الصعيدين الفردي والجماعي، بالطابع الفريد للرقي الروحي الـذي يتيـح بلوغ ما هو أبعد من الشعور بالعـدل، الذي يطالب بالحق، إلى تميز القلب الـذي يغفر أو الذي يعطي الناس أكثر من استحقاقهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[4].

لم تكـن المسألة تتعلق بالتخلي عن الحـق (كان أبو لبابة محقاً في طلب الاعـتراف بذلك الحق)؛ بل إنهـا كانت مسألة التعلـم أن يتجاوز المرء ما هـو حق لـه في بعض الأحيـان، في سبيل الأسبـاب القلبية التـي تغرس في الذهـن الغفران والسمـاح وبذل النفس والمـال تلبية لدوافـع الإنسانية أو المحبـة المشتركة، حزن النبـي ﷺ جراء موقف أحـد صحابته الذي كان يكنّ له احتراماً شديداً: لقد أدرك أن تعلق أبي لبابة، الذي كاد يكون تعلقاً أعمـى بإحدى توصيات الإسـلام، وهي العدل، قد منعه مـن بلوغ المستوى الأسمى لعدالة القلب: التميز، والسخاء، والبذل. في خاتمة المطاف، عرض صحابـي آخر، ثابت بن دحدنة رضي الله عنه ـ الـذي شهد ما جرى، على أبي لبابة بستانـاً كاملاً مقابل نخلتـه، وأعطاها بعدئذ إلى اليتيـم، وقد فرح النبي ﷺ بهذه النتيجة ولم يستنكر موقف أبي لبابة، فقد عهد إليه لاحقاً بمهمة أخرى، وهـي إبلاغ بني قريظة بشروط استسلامهم، ونفذ أبو لبابة المهمة التي أسندت إليه لكنه لم يقاوم الإفراط في الحديث، فقد خجل من سلوكه وقـام بربـط نفسه في شجرة ستـة أيام، آملاً أن يغفر لـه الله والنبي ﷺ هفوته وعـدم إخلاصه، وجاء العفو وقام النبي ﷺ نفسه بفك أربطة أبي لبابـة، هذه الحادثة الفردية تدل على أن التزكيـة الروحية لم تتحقق كلياً علـى الـدوام، وأن الضمائر كانت تتعرض دائمـاً للاختبار وأن النبي ﷺ كان يقرن تعاليمه بالصرامة ولكن أيضاً بالنزعات الخيرية.

كان النبـي ﷺ، منـذ بعض الوقت، قـد تزوج أرملـة اسمها زينب من عشـيرة بنـي أمير وكانـت معروفة بسخائهـا ومحبتها للفقـراء، وكان قد أقـام صلات من خلال ذلك الزواج مع قبيلتها التي ظلت مخلصة له رغم الضغـوط الداخليـة والخارجية التي كانـت تمارس عليها، كانـت زينب ـ رضـي الله عنهـا ـ التي كانت تعـرف بأم المساكين، شديـدة الورع وجاءت لتسكن في مسكن أقيم لها قرب المسجد، غير أنها توفيت بعد ثمانية أشهر من عرسهـا ودفنت بالقرب من رقية، ابنة النبـي ﷺ، وبعد بضعة أشهر تزوجـت أم سلمة -أرملة أبي سلمة، التي هاجرت معه إلى الحبشة- النبي ﷺ وسكنـت في المقر الذي ظل شاغراً بعـد زينب، كانت أم سلمة ـ رضي الله عنهـا ـ تقية ومقدامة وذات جمال باهر، وكان لها مركز ودور مهم في وقفتهـا إلى جانـب النبي ﷺ. وقد أقرت عائشة ـ رضـي الله عنها ـ أنها كانـت تشعر بالغـيرة من أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ بسبب جمالها ولأن النبي ﷺ كان يستمع إليها ويتأثر كثيراً بآرائها.

واصل النبي ﷺ، حسبما كانـت تسمح به الظروف ورغم الصعوبات، في نشـر تعاليم الإسلام وتطبيقها بنفسه. فقد انتـزع أحد الصحابة مرة فـرخ طائر من عشه وقامت أمه بمهاجمته فجأة دفاعاً عن وليدها، فطلب إليه النبي ﷺ إعادة الفرخ إلى العش وقال لمن كانوا حوله: «إن الله أرحم بكـم من هذا الطائـر بفرخـه»[5]. كان يعلمهم التأمل في خلـق الله وأخذ الدروس من الطبيعة التي تحيط بهم وأصغر عناصر الحياة، وقد تكررت هذه الدعوة في الآيات التي كانت تنزل عليه:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[6].

وفي آية أخرى:

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[7].

والطير في السماء تشهد على ذلك:

﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴾[8].

وسوف يؤكد الوحي لاحقاً أهمية القيم الروحية التي تتجلى من خلال الملاحظة والتأمل وذكر الله، وترتبط بالتذكير المتواصل بنعم الله التي لا تعد ولا تحصى وفضله على قلوب البشر. «يخاطب الله العين المادية والعقل ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾، ويمضي مخاطباً عين القلب والإيمان[9]. هذه التعاليم كانت تشكل وتقولب القوة الروحية للنبي ﷺ كان يعرف مصدر قوته وضعفه، وعندما كان أعداؤه يحاولون خداعه وتدميره، وقد ذكره الله بفضله عليه وحمايته له في مواقف ضعفه: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴾[10].

إن آيات الخلق وقدرة النبي ﷺ على التفكر في الأحداث أو تفاصيل الحياة الصغيرة وتقبل صدقة القلب التي تتمثل بكلمة طيبة (الكلمة الطيبة صدقة)[11]. أو من خلال التبسم في وجه أخيه الإنسان (إن التبسم في وجه أخيك صدقة[12]، كل هذا أعطاه القوة على المقاومة والصبر، إن

كون الإنسان دائماً مع الله الأحد، وتذكر وجوده من خلال نظره أو التفاته كونه الولي الذي يحميه بدلاً من كونه القاضي أو الناقد ـ هذا هو معنى الإحسان، قوة القلب والإيمان: (الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك)[13].

كان أصحابه يرون هذه الصفات فيه ويحبونه ويستمدون طاقتهم الروحية من خلال وجوده بينهم، وكان يعلمهم مواصلة تعميق هذا الحب: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أبيه وابنه وولده ونفسه التي بين جنبيه»[14]. كان يعلمهم أن يواصلوا سعيهم الروحي ومحبتهم، بينما كان يذكرهم بأن تلك الصلة الحميمة تتجاوز قدرته البشرية ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[15]. كان هو القدوة والنموذج الذي كان يعيش بينهم ويمنح حبه إليهم جميعاً وإلى الفقراء وإلى المسنين، وكان يظهر الكياسة والاحترام للنساء ويهتم بالأطفال، كان جَدّاً يحمل أحفاده على ظهره أثناء الصلاة في المسجد، ويجسد القدوة والمثل بأن المرء لا يستطيع أن يذكر الله ويكون قريباً منه دون التحلي بالسخاء والاهتمام بالآخرين.

وقد أكد الوحي مكانته المتفردة في كثير من المجالات، وكان الله يطلب منه ممارسة أكثر شدة، لا سيما بشأن قيام الليل، ولم يكن لالتزاماته إزاء جبريل وإزاء الله مثيل، وعلى صعيد آخر، كان القرآن قد حدد للمؤمنين أربع زوجات لكنه ثبت تفرد النبي ﷺ في هذا الصدد. كما أن القرآن ذكر زوجاته بأنهن ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[16]. فمنذ ذلك الحين فرض عليهن ستر وجوههن ومخاطبة الرجال من وراء حجاب، وتم إبلاغهن بأنه لا يجوز لهن معاودة الزواج بعد وفاة النبي ﷺ. وفي ضوء الحدود

القرآنية تزوج محمد ﷺ امرأة أخرى اسمها زينب وهي مطلقة رقيق محمد ﷺ السابق زيد، الذي أصبح يعرف بابن محمد ﷺ بعد أن تبناه النبي ﷺ لكنه عاد إلى اسمه الأول، ابن حارثة، لأنه لم يكن ابن النبي ﷺ بيولوجياً. وقد جاء في القرآن تعليقاً على ذلك: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[17].

الأحزاب

ذهب عدد كبير من بني النضير ليستقروا في خيبر بعد نفيهم من المدينة، وكانوا يشعرون بحقد شديد على النبي ﷺ ويتطلعون إلى ثأر سريع، وكانوا يعلمون، كغيرهم من قبائل الجزيرة، أن قريشاً كانت تعد العدة للقيام بهجوم واسع النطاق للقضاء على المسلمين ووضع حد نهائي لرسالة محمد ﷺ. وقد ذهب حُيي، زعيم بني النضير إلى مكة مع الزعماء اليهود من خيبر لإبرام تحالف مع قريش لم يترك أي مجال للشك، لابد من مهاجمة محمد ﷺ وجماعته والقضاء عليهم، لتحقيق ذلك، اتصلوا بقبائل أخرى لضمها إلى الحلف؛ وقد انضم إلى الحلف بنو أسد وبنو غطفان وبنو سُلَيم، فقط بنو عامر، الذين تزوج النبي ﷺ واحدة من نسائهم، والذين أظهروا ولاء ثابتاً (باستثناء بعض الأفراد الذين خانوا العهد)، رفضوا الانضمام إلى الحلف الجديد لأنه سبق لهم أن تعاهدوا مع محمد ﷺ.

كانت القوات التي تجمعت ضخمة، وعندما سارت الجيوش إلى المدينة، بدا أن المسلمين لن يكون لهم طاقة في مواجهتهم، وكان عدد

أفراد جيش قريش وحلفائهم من الجنوب يزيد على أربعة آلاف، وجُمِعَ جيش آخر، جاء من نجد في الشرق، مكون من مختلف القبائل، ما يزيد على ستة آلاف رجل، وكان من المقرر مهاجمة المدينة من جهتين، ثم يتم تطويقها بواسطة عشرة آلاف محارب: من غير المتصور أن يخرج سكانها سالمين. وعندما انطلقت الجيوش، أرسل عم الرسول ﷺ، العباس، سراً، وفداً إلى المدينة لتحذير النبي ﷺ بشأن الهجوم المتوقع، وعندما وصل الوفد إلى المدينة، كان أمام أهل المدينة أسبوع واحد أو أقل لوضع إستراتيجية للمقاومة، ولم يكن بوسعهم جمع أكثر من ثلاثة آلاف من الجند، أي أقل من ثلث قوة العدو.

تمشياً مع عادة النبي ﷺ فقد جمع أصحابه وتشاور معهم بشأن الموقف والخطة التي يتعين اعتمادها، قال بعضهم بوجوب الخروج من المدينة ومواجهة العدو، مثلما فعلوا في معركة بدر، ورأى آخرون أن فرصتهم الوحيدة تكمن في بقائهم داخل المدينة، وأنه يجب استخلاص العبر من هزيمة أُحُد، وكان بين الصحابة رجل فارسي اسمه سلمان (الفارسي)، قدم اقتراحاً فريداً في نوعه من عدة جوانب، لقد كان دائم البحث عن الحقيقة عن الله، وكان قد سافر إلى مكة على أمل أن يعيش بجوار النبي ﷺ. ولم تسعفه الظروف وبيع في خاتمة المطاف إلى قبيلة بني قريظة، وقد جمع النبي ﷺ والصحابة المبلغ اللازم لتحريره من الرق وكان قد أصبح واحداً من الصحابة مدة من الوقت، وقد شارك في اجتماعاتهم وتميز بتقواه وإخلاصه، فعندما نهض ليتكلم، اقترح إستراتيجية لم تكن معروفة عند العرب حتى ذلك الوقت: «يا رسول الله، كنا بفارس إذا حوصرنا

خندقنا علينا»[18]. كانت الفكرة غير متوقعة، لكن جميع الصحابة أعجبوا بهـا وقرروا تنفيذهـا، كان عليهم العمل بسرعة، حيث لم يكن لديهم سوى أسبوع واحد لحفر خندق واسع بما يكفي لمنع الجياد من القفز من فوقه.

كانـت هـذه المواجهـة الرئيسـة الثالثة مـع قريش، وكانـت في الواقع الإستراتيجية الثالثة التي اعتمدها المسلمون، في بدر تجمعوا حول الآبار، وفي أحـد، لم يكن لإستراتيجية استخدام التل أي صلة بالأسلوب الراهن المتمثل بالانتظـار وإبقاء العدو على مسافة منهم، والتي بدا أنها الوسيلة المتاحـة الوحيـدة لمقاومة الهجوم، وربمـا، إذا استمر الحصـار، إعطاء الذين هم داخل المدينة فرصـة للمقاومة، هذا الابتكار في الإستراتيجية العسكرية يبين الطريقـة التي كان النبي ﷺ يعلم فيها صحابته الإيمان العميـق واستغـلال الإبـداع الفكري في كافـة الظروف، فلـم يترددوا في استعارة أسلوب حربي أجنبـي، اقترحه عليهم رجل فارسي، وتكييفه مع وضعهـم في المدينـة، فقد تم التكامل بين عبقريـة الشعوب وحكمة الأمم والابتكار البشري السليم في نمط تفكيرهم، دون تردد أو خوف، وكما أكد النبي ﷺ بشدة: «الحكمـة ضالة المؤمن أينما وجدها هو أحق بها»[19]. كانت هذه دعوة إلى دراسة أفضل ما تمخض عنه الفكر البشري واعتماده بوصفه جزءاً من التراث الإيجابي للبشرية (المعروف بأنه للخير العام). وعلى صعيد أوسع، فقد كانت إظهار الفضول المعرفي والابتكار والإبداع في إدارة الشـؤون الإنسانية، وقد ظهر هذا ليس فقط في طريقته في الحرب وإستراتيجياتهـا، بـل أيضاً، كما رأينا، من خـلال طريقته في النظر إلى عالم الأفكار والثقافة.

الخندق

بـدأ العمل على الفور وشاركت المدينة برمتهـا، فقرروا أين يجب حفر الخنـدق والأمكنة التي من شأن الصخور والتضاريس في المنطقة أن تحول دون دخـول العدو حيث لا يكون الخندق ضرورياً، كانت أيام العمل طويلة لأن الصحابة كانوا يعملون منذ صلاة الفجر حتى الغروب.

وقد شارك محمد ﷺ في العمل، وكان الصحابة يسمعونه وهو يدعو الله في بعض الأحيـان وفي أحيان أخـرى ينشد الأشعـار وأحياناً يغني ويشتركون معه في الغناء في تلك اللحظات التي كانوا يقضونها في العمل الجماعي، كانت وسيلة لإحلال الأخوّة بينهم والشعور بالانتماء، كما أنها أتاحت الفرص للتعبير الجماعي عن المشاعر والطموحات والآمال، وقد مكـن النبي ﷺ من خلال الدعاء والشعر والغناء الرجال في مجتمعه ـ عدا عـن اشتراكهم في الإيمان والصلاة ـ مـن التواصل عبر الإفصاح عن المشاعر وموسيقى القلوب التي تعبر عن الانتماء إلى تعبير مشترك عـن الذات والخيال الجماعي والثقافة، لقد كانوا موحدين لا من خلال مـا تلقوه من الواحد الأحد فحسب ـ والـذي كانوا يؤمنون به ـ بل أيضاً في طريقتهم في التحدث عن أنفسهم، والإعراب عن مشاعرهم والتأمل في مركزهم في الكون، إن المشاركة الإيمانية، والمعاني الحميمة، لا يمكن أن تظـل مفاهيم مجردة بحتة، فهي لا تستطيـع المحافظة على طاقتها التـي تبعث الحيـاة إلا إذا اقترنت بالمشاركة في الـكلام والأفعال ضمن مساحة مشتركة من المرجعيات الاجتماعية والثقافية، فالإيمان بحاجة إلى ثقافة، وهكذا فعندما كان محمد ﷺ يريد توحيد طاقات أصحابه، كان يستدعـي كافـة مستويـات وجودهـم في العـالم بغيـة ترقية وحدة

أمتـه: الإيمان العميق بالواحـد الأحد، الصياغـة الشاعرية للمشاعر، وموسيقيـة أغنيـة المشاعر، وكان يبرهن، من داخـل أمته والمشاركة في حياتهـم اليوميـة، على أنه حـين كرّس نفسـه للواحد الأحـد حقاً، بما يتجـاوز الزمان والمكان، فإنه كان يعيش تاريخهم ويشترك في ثقافتهم: فقد كان واحداً منهم.

كان الخنـدق الـذي أخذ يبرز مع سـير العمل نجاحـاً عظيماً: فسوف يتعذر على فرسان العدو عبوره في أي نقطة، وسيكون بوسع الرماة المسلمين منعهـم، دون صعوبـة، من القيام بأي محاولة جريئـة، وقبل استقرار أهل المدينـة داخلها، قاموا بجمع جميع المحاصيل في الواحة حتى يضطر العدو إلى الاعتماد على احتياطيه من الغذاء، كانت جيوش العدو تقترب، وسارع المسلمون إلى داخل المدينة، خلف الخندق، انتظاراً للعدو.

الحصار

وصلـت الجيوش إلى جنـوب وشـرق المدينـة وعسكـرت هنـاك، وقد تملكتهـم الدهشـة لدى رؤيـة الخندق، وهو مـا أفشل خطتهـم في تطويق المدينـة واجتياحها في هجوم مشـترك من كافة الجهات، لقد كان الخندق حقـاً تقنية حربية غير معروفة للعرب، لذا فقد كان على الأحزاب التفكير في خطة بديلة لهزيمة المسلمين.

بدأت المشاورات بين مختلف القبائل للاتفاق على أفضل وسيلة لتقصير مـدة الحصـار والاستيلاء على المدينة، ودون إمـدادات غير تلك الخاصة بهـم، لم تكن حرب طويلة الأمد واردة، فقرروا أن تتجمع الغالبية العظمى مـن القوات في الشمال بغيـة تحريك قوات المدينة في ذلـك الجانب بينما

يحاول الآخرون اجتياز الخندق من الجنوب غير المحروس في ذلك الوقت، حيث بدا أن الوصول قرب الصخور أسهل منالاً، وكانت قبيلة بني قريظة اليهودية تعيش في تلك المنطقة وسبق لها أن وقعت اتفاق مساعدة مع محمد ﷺ، لكنها قد تشكل النقطة الضعيفة في وحدة المدينة. وقد أصرّ حُيي، رئيس بني النضير، على الذهاب إلى حصن بني قريظة للتحدث إلى رئيسهم، كعب بن أسد، ومحاولة إقناعه بفسخ تحالفه مع محمد ﷺ. في أول الأمر رفض كعب بن أسد استقبال حُيي، لكن ذلك الأخير أصر بشدة جعلت رئيس بني قريظة يسمح لنفسه بالرضوخ، أولاً بغية الاستماع لما يقوله، ثم خيانة العهد، هذا الانحياز كان يعني أن إستراتيجية أهل المدينة قد انهارت، إذ إن تحالف بني قريظة مع العدو كان يعني فتح ثغرة من الداخل وفتح المجال أمام العدو لدخول المدينة، مما كان سيؤدي إلى هزيمة مؤكدة وإبادة مؤكدة للمسلمين.

لم يكن جميع بنو قريظة راضين عن قرار زعيمهم، وحدث توتر ضمن المجموعة، لكن الغالبية العظمى وافقوا على الانضمام إلى قوات قريش وحلفائها، في غضون ذلك كانت استطلاعات النبي ﷺ لتحركات قوات العدو في الشمال قد جعلته يتوقع حدوث حيلة، لذا قرر التأكد من مدى الثقة بحلفائه في الجنوب؛ لأنه كان يعلم أن بني قريظة كانوا أبعد من أن يكونوا منحازين إليه، في غضون ذلك، سمع إشاعات بأن زعماء بني قريظة قد نقضوا العهد من جانب واحد، فإذا تبين أن الإشاعات صحيحة، فإن معنويات جيش المسلمين لن تنهار فحسب، لكن فرص نجاحهم ستكون شبه معدومة، فأرسل اثنين لاستطلاع الأمر والتصرف بحكمة: فإذا كانت الإشاعات لا نصيب لها من الصحة، فإن عليهم الإعلان عن ذلك

بشكل واضح بغية طمأنة المحاربين وإعادة الشجاعة إليهم، أما إذا كانت صحيحة فقد طلب منهم أن يخبروه بشكل خفي، كانت الأخبار صحيحة، حسب رواية المستطلعين، وكان يتوجب على محمد ﷺ أن يتصرف على وجه السرعة، فأرسل زيداً إلى الجهة الجنوبية مع ثلاث مئة رجل لمنع العدو من القيام بأي محاولة للعبور بمساندة بني قريظة.

أصبح تحمل الحصار يزداد صعوبة وكان على المسلمين أن يكونوا دائماً يقظين وعلى أهبة الاستعداد، وفي أحد الأيام، تعددت الهجمات وجاءت من عدة جهات حتى أن المسلمين لم يستطيعوا أداء صلاة الظهر والعصر في وقتهما المحدد، ولا بعد صلاة المغرب. وقد شعر النبي ﷺ بالضيق وبدأ الحصار يؤثر على معنويات الصحابة، وقد وصف الوحي وضعهم في هاتين الآيتين:

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[20].

كانت المحنة صعبة، وكشفت عن القبائل والأفراد الصادقين والمخلصين. فالحرب لم تكشف عن خيانة عشيرة بن قريظة فحسب، بل كشفت مرة ثانية المنافقين الذين سارعوا إلى التفكير في إعادة النظر في التزامهم أو حتى في الاستسلام، جاء في القرآن: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[21]. وأراد بعضهم العودة إلى أهلهم، وقالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾[22]. وكان آخرون لا يريدون سوى الفرار من القتال وحماية أنفسهم، إذ إنه بدا

مـن الواضح لهم أن دفـاع المسلمين سوف ينهار قريباً، وبدا أن المقاومة عدة أيام بهذه الطريقة متعذرة.

غـير أن الغالبية العظمى من المسلمين كانـوا أوفياء للنبي ﷺ وقدوته وكانـوا يشاركونه تصميمه وثباتـه، وقد نزل الوحي مشيراً إلى هذه الأزمة التي أظهـرت قوة الإيمان وصدقه والإخلاص للواحد الأحد، وإلى الرسول القـدوة: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[23].

إن معنـى الآية يتجاوز كثـيراً ظروف تلك المعركة، فهـي تنبئ عن دور النبي ﷺ ومركزه في حياة كل مسلم، لكنها ترسم بعداً أقوى بكثير عندما نتذكر ظروف نزولها: جماعة محاصرة، مهزوزة، غير قادرة، من المنظور والفكـر البشـري، أن ترى أي مهـرب من الكارثة الوشيكـة، وقد تضاءلت صفوفهـا من خلال الفـرار والخيانـة، وتتوحد وتلتف حـول الرسول ﷺ ودينه وثقته، وقد أكد الوحي ذلك:

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾[24].

فيمـا كان الاحتياج على أشـده، كان النبي ﷺ منزعجاً لعدم تمكنه مـن أداء مختلف الصلـوات في مواعيدها المحددة، هـذا الوعي للنظام لم يكـن يغـادر الرسول ﷺ أبـداً، فقد كان حريصاً جـداً على عباداته اليوميـة، ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾[25]. فتفويت أوقات الصلاة كان يمس قلبه ويجعله شديد الاستياء من الذين

اضطـروه إلى ذلك، وقد شهد جميع الصحابة، في جميع ظروف حياته، هذا الجمع الذي يثير الدهشة بين طيبة قلبه اللانهائية وتصميمه الذي لا يلـين في الشدائد وحرصـه الشديد على الأوقـات والمواعيد، وقد روى ابـن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ لاحقاً أنه رأى النبـي ﷺ يجمع بين صلاتي الظهر والعصر وبين صلاتي المغرب والعشاء دونما سبب ظاهر، وأدرك الفقهـاء المسلمون جواز ذلك أثنـاء السفر أو في وضع استثنائي، لكـن السُنّة تظل في حياة النبي ﷺ سارية بشأن ضرورة المراعاة التامة للصلاة، وهي تذكـر بالعلاقة المتميزة بالواحد الأحد والشعور بها، هذا ما يؤكده القرآن حين يـروي مناداة الله لموسى عليه السلام: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[27].

حيلة

كان المسلمون في وضع حرج، لكن مع مرور الأيام وجد الأحزاب أنفسهم في وضـع مختلف؛ لأنه لم يكـن لديهم الكثير من الطعـام وكانت الليالي شديدة البرودة، وقد حاول النبي ﷺ التفاوض بشأن تخلي عشيرتين من قبيلة غطفان عن الأحزاب فعرض عليهم ثلث محصول المدينة من التمور؛ فأجابـوا مبعوثه بأنهم يريـدون نصف المحصول، لكـن النبي ﷺ أصر علـى ما عرضه عليهم فقبلوا في خاتمة المطاف، وقبل إرسال عثمان رضي الله عنه لإبـرام الصفقة، استشار النبي ﷺ زعيمي عشيرتي المدينة الرئيستين، الأوس والخزرج، بما لديهم من معرفة بالعشائر المجاورة، فسألوا إن كان عرضـه وحياً أو اختيـاراً شخصياً، وعند سماعهم أنـه مبادرة شخصية

الفرض منها حمايتهم، رفضوا شروط الاتفاق وأبلغوا الرسول ﷺ أنه بالنظر للوضع، فإن القتال هو الطريقة الوحيدة للنجاة.

في تلك اللحظة، زار النبي ﷺ نُعيم بن مسعود، وهو من كبار رجال قريش ويلقى احترام جميع قبائل الجزيرة، وقد جاء ليقول للنبي ﷺ إنه اعتنق الإسلام وأنه ما من أحد يعرف ذلك حتى ذلك الوقت وأنه يضع نفسه تحت تصرف النبي ﷺ. وكان نعيم معروفاً لدى جميع الزعماء المحاصرين للمدينة ويحظى باحترامهم. وكان محمد ﷺ يعرف ذلك فقال له: «إن استطعت أن تخذل عنا الناس فافعل!». وقد سأل نُعيم إذا كان من المسموح به أن يكذب، فأجابه النبي: «افعل ما بدا لك فأنت في حلّ، إنما الحرب خدعة!» (28).

فلجأ نعيم إلى إستراتيجية فعالة، فذهب أولاً إلى بني قريظة وحذرهم بشأن نوايا حلفائهم الجدد، فقال لهم بأنه إذا سارت الأمور على غير ما يشتهون، فإن الأحزاب لن يترددوا في أن يخذلوهم وأنه سيتم تركهم إلى محمد ﷺ دون أي حماية، فنصحهم بأن يطلبوا من القبائل الأخرى بعض رجالهم كرهائن ضماناً لعدم تخليهم عن بني قريظة، فأعجبتهم الفكرة وقرروا إرسال مبعوث إلى زعماء قريش لإبلاغهم بطلبهم، ثم أسرع نعيم إلى أبي سفيان ليحذره بأن بني قريظة يخدعونه وأنهم حلفاء لمحمد ﷺ في حقيقة الأمر، فقال له: إنهم سوف يطلبون منه إرسال رجال كعربون على إخلاصه، لكنهم يريدون في حقيقة الأمر أن يسلموهم إلى محمد ﷺ للدلالة على حسن نواياهم، وعندما جاء مبعوث بني قريظة إلى أبي سفيان وأخبره بطلب الرهائن، تأكد أبو سفيان من صدق نعيم وأن بني قريظة

كانوا يخدعونه في واقع الأمر، فقام على الفور باستدعاء زعيم بني النضير وسألـه عن تلك الخيانة، دُهِش حُيي في أول الأمر ولم يعرف ما يقول، وظن أبو سفيان أن في ذلك اعترافاً بالخيانة.

كانت أول علامات الانقسام تظهر في معسكر الأحزاب، فقد ساد جو مـن عدم الثقة المتبادلة بـين بعض العشائر، بينما كانـت عشائر أخرى قـد ضاقت ذرعاً ببعضها البعض، وقد أضعفت الأنباء تصميم المقاتلين المتحالفين مع قريش كثيراً، وعمل الإرهاق والضجر ونقص الطعام على ازديـاد منـاخ الإحباط سوءاً، ثـم هبت ريح صرصر عاتيـة على السهل أقنعتهـم بأنه أصبح من المتعذر التغلب على مقاومة المدينة، وكان محمد ﷺ قد بلغه حالة الروح المعنوية المتدهورة في معسكر العدو فأرسل حذيفة ليستطلع الأمر ليلاً، وعاد حذيفة يحمل أنباء طيبة عن الفوضى العارمة السائـدة فيهـم وأن البرد قد أصابهـم بالشلل، كان الرجـال يستعدون للرحيل وارتحل الكثيرون من المقاتلين، وبشر النبي ﷺ أصحابه بالأنباء الطيبـة بعد صلاة الفجر، حيث أظهر ضـوء النهار أن العدو قد ارتحل، استمر الحصار الذي جـرى في السنة الخامسة للهجرة (627م) خمسة وعشريـن يوماً وعاد الأحزاب مخذولين لم يقاتلوا ويحملون عبء هزيمة حقيقية ورمزية.

بنو قريظة

سرّح النبي ﷺ رجاله وسمح لهم بالعودة إلى بيوتهم، فقد ارتحل العدو ورُفِع الحصار، وابتهج أهـل المدينة المرهقون والذين كانوا قد فقدوا الأمل وبلغـوا نهاية قدرتهم على المقاومة، وفرحوا بالنتيجة، وعاد محمد ﷺ إلى

المنـزل على الفور واستراح حتى صـلاة الظهر، وبعد أن أدى الصلاة جاءه جبريل وأبلغه أن الله يأمره بالذهاب على الفور إلى بني قريظة الذين كادت خيانتهم تؤدي إلى إبادة جماعة المسلمين، وأن يحاصر حصنهم.

فدعـا النبي ﷺ على الفـور أصحابه وبقية المصلـين في المسجد وطلب إليهـم الاستعداد علـى الفور للذهاب إلى بني قريظـة، وفيما كان المسلمون ينطلقـون على شكل جماعات أمرهم النبي ﷺ: «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»[29]. لم يكن هناك متسع من الوقت، ولم يتوافر للمسلمين، الذين كانوا قد تأملوا بأن يحصلوا على قسط من الراحة أخيراً، من الوقت سـوى ما يكفي لجمـع معداتهم وارتـداء آلة الحرب، والانطـلاق في إحدى الجماعـات المتوجهة إلى بنـي قريظة. وقد ثار جدل عندما حان وقت صلاة العصر، فقد قال بعضهم، الذين كرروا أمر النبي ﷺ بحرفيته، بأنه يجب ألا يصلـوا في الطريـق بل عليهم الانتظار حتى يصلـوا إلى بني قريظة[30]. وجـادل آخرون بأن قصد النبي ﷺ هو أن عليهم الإسراع إلى هناك، ولكن عنـد حلول وقت الصلاة فلابد لهم من أدائها في وقتها بالطبع، وهكذا فإن بعضهـم امتنع عن الصلاة التزاماً بحرفية كلمـات النبي ﷺ، بينما صلى الآخـرون، انطلاقاً من روح أمر النبي ﷺ. وقـد سألوا النبي لاحقاً عن أي التفسيريـن هو الصحيح فأقـر الاثنين، هذا الموقف كان من شأنه أن يترتب عليـه نتائـج رئيسة لمستقبل الأمة الإسلامية، حيـث إنه بعد وفاة النبي ﷺ برزت مدرستـان فكريتان: أهل الحديث الذين التزموا، على غرار عبد الله ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ انطلاقاً من روح الجماعة الأولى آنفة الذكر، بالمعنـى الحرفي لأقـوال النبي ﷺ المرويـة في السنّة، وأهل الـرأي، الذين

حاولوا مع عبد الله بن مسعود ﷺ، فهم القصد من الحديث، وروحه ومعناه المجازي في بعض المناسبات، وكان النبي ﷺ قد أقرّ الرأيين ولذا فقد أظهر هذا الموقف طريقتين صحيحتين ومشروعتين في الإخلاص للرسالة.

حاصر حصن بني قريظة نحو ثلاثة آلاف رجل، ومع أن بني قريظة وجدوا أنهم سقطوا في الفخ ولا يوجد لديهم طعام كاف، إلا أنهم قاوموا مدة خمسة وعشرين يوماً، فقد كان خوفهم عظيماً من المصير الذي كان ينتظرهم بعد تلك الخيانة الخطيرة، أرسل لهم النبي ﷺ أبا لبابة، وهو رجل من الأوس (سبق له أن أبرم اتفاقاً مع بني النضير وبقي عملياً قريباً من بني قريظة) ــ لمناقشة شروط استسلامهم، لدى رؤيته لحالة الوحشة داخل الحصن، لم يسع أبو لبابة سوى أن يلمح لبني قريظة بأن مصيرهم سيكون الموت إذا استسلموا، وقد ندم ندماً شديداً لاحقاً على موقفه الذي كان من المحتمل أن يجعل بني قريظة لا يستسلمون أو أن يبحثوا عن مخرج آخر من خلال إقامة تحالفات أخرى، على أنهم قرروا فتح أبواب حصنهم والإقرار بالهزيمة.

وضعت النساء والأطفال تحت وصاية حاخام سابق، عبد الله بن سلاّم، ثُمَّ قُيِّد السبع مئة رجل وعزلوا في أحد الحقول، وجُمِعت حاجاتهم وممتلكاتهم وأسلحتهم لتُنْقَل إلى المدينة، فقام الأوس على الفور بإرسال وفد إلى النبي ﷺ يطلبون منه معاملة بني قريظة بالرحمة نفسها التي أظهرها سابقاً للجماعات الأخرى التي انحازت ضده، فسأل محمد ﷺ الأوس: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟»[31] فأجابوا بالإيجاب، لأنهم كانوا على قناعة بأن واحداً منهم لن ينسى

التحالفات السابقة، فأرسل النبي ﷺ وراء سعد بن معاذ رضي الله عنه، الذي كان لايـزال يعاني من جروح ويجـري تمريضه في مسجـد المدينة، وذهب وفد لإحضـاره، كان النبي ﷺ حتى ذلك الوقت يبقي علـى حياة أسراه، وكما أوردنا آنفاً، فقد كان قد وجد بعض أسرى بدر الذين أبقى على حياتهم بين ألد أعدائه في معركة أُحُد اللاحقة، وحدث مثل ذلك مع بني النضير: فقد كان قـد سمح لهم بالمغادرة مع نسائهم وأطفالهـم وممتلكاتهم، لكن كان زعيمهـم، حُيي -لاحقاً- على رأس مؤامرة الأحزاب، وكان بين أسرى بني قريظـة الكثيرون الذين تم نفيهم من بني النضـير، وهكذا فإن رحمته لم يكـن لها أي أثر على أولئك الذين استفادوا منها، الأمر الذي أرسل رسالة مشوشـة في أنحـاء الجزيرة: فقـد أصبح الناس يقولون بـأن محمداً ﷺ لا يقتـل أسراه أبداً، خلافـاً لعادة العرب بل وحتى عـادة اليهود[32]. فقد اعتبرت رحمته، التي لقيت خيانة متكررة علامة ضعف، إن لم تكن علامة جنون. ثم إن خيانة بني قريظة كانت على درجة من الخطورة بحيث إنه لو نجحت مخططاتهم، لأدت إلى إبادة المسلمين، الذين تعرضوا للخيانة من الداخل وإلى أن يسحقهم جيش يفوق عدده العشرة آلاف مقاتل.

وصـل سعد بن معاذ رضي الله عنه أخـيراً إلى بني قريظـة، وأراد قبل كل شيء أن يلقـى حكمه احترام الجميع، فخاطب زعماء مختلف الجماعات الذين تعهـدوا الواحد تلو الآخر بالتقيد بالقرار الـذي يصدره، ثم خاطب النبي ﷺ الذي أكـد له بأنه لن يعارض الحكم الذي يصدره، فأصدر ابن معاذ حكمـه بإعدام الرجال واعتبـار النساء والأطفال أسرى حرب، قبل محمد ﷺ الحكـم الـذي تم تنفيذه خـلال الأيام اللاحقة، وتم افتـداء عدد من

الأسرى من قبل بني النضير وريحانة- وهي أسيرة من بني قريظة- كانت في الأصل من بني النضير وأصبحت جارية لدى النبي ﷺ. وقد اعتنقت الإسلام، لكن اختلفت الروايات عن مصيرها لاحقاً. تقول بعض المصادر بأن النبي ﷺ حررها وتزوجها بينما روت مصادر أخرى بأنه إنما تزوجها فقط. وجاء في مصادر أخرى أنها رفضت وظلت خادمته مدة خمس سنوات، حتى وافتها المنية[33].

انتشرت أنباء انتصار المسلمين في أنحاء الجزيرة: وغيرت تغييراً جذرياً الآراء وموازين القوى، فالمسلمون لم يقاوموا جيشاً بلغ أكثر من عشرة آلاف محارب فحسب بل لقد أظهروا أيضاً تصميماً لا يلين. هذا ويُعد المصير الذي آل إليه رجال بني قريظة رسالة قوية لجميع القبائل المجاورة مفادها أن الخيانات والأعمال العدوانية سوف تلقى عقاباً شديداً بعد ذلك الوقت، وقد وصلت الرسالة: فمثل هذا الوضع لم يتكرر أبداً طيلة حياة النبي ﷺ.

زينب وأبو العاص

كانت زينب ـ رضي الله عنها ـ ابنة النبي ﷺ قد تزوجت أبو العاص الذي لم يعتنق الإسلام، وكانت قد بقيت معه في مكة في بادئ الأمر، إلى أن طلب منها النبي ﷺ أن تلحق به إلى المدينة مع ابنتها الصغيرة أمامة. كانت زينب ـ رضي الله عنها ـ تحب زوجها حباً جماً لكن وجهة كل منهما المختلفة في الحياة قد جعلتهما يفترقان في خاتمة المطاف، غير أنَّ أيّاً منهما لم يتزوج ثانيةً.

بعد بضعة أشهر من معركة الخندق، أرسل النبي ﷺ سرية لاعتراض سبيل قافلة لقريش آتية من الشمال، وقد استولى زيد رضي الله عنه، الذي كان يرأس فرسان المسلمين، على بضائع القافلة وأسر معظم رجالها، بينما استطاع آخرون الإفلات، وكان أبو العاص من بين أولئك الآخرين، وقد قرر في رحلة عودته إلى مكة أن يعرج على المدينة ويقوم بزيارة خفية لزوجته وابنته، كان هذا ضرباً من الجنون بحد ذاته، لكن رغبته في رؤية زوجته وطفلته كانت أقوى من إدراكه للمخاطر التي ينطوي عليها قراره، فطرق باب زوجته ليلاً وأدخلته زينب ـ رضي الله عنها ـ إلى بيتها، فمكث عندها وعند اقتراب الفجر ذهبت زينب ـ رضي الله عنها ـ إلى المسجد لأداء الصلاة كما كانت تفعل دائماً، فدخلت المسجد ووقفت في صف النساء الأول، مباشرة خلف الرجال، وعندما أقام محمد ﷺ الصلاة، انتهزت فرصة التريث القصير لتقول بأعلى صوتها: «أيها الناس! لقد أجرت أبا العاص بن ربيع!» بعد انتهاء الصلاة عمل النبي ﷺ الذي لم يكن يدري بما كان قد جرى بين ابنته وزوجها، على أن يؤكد جمهور المصلين أنهم سمعوا إجارتها لأبي العاص، وأصرّ أن الحماية التي منحت ـ سواء أكانت من قبل ابنته أم من قبل أي مسلم آخر ـ يجب أن تحترم، ثم ذهب إلى ابنته التي أخبرته بالموقف الذي يواجهه أبو العاص، الذي أخذت كافة بضائعه خلال الغزوة التي جرت مؤخراً في الشمال، والذي أصبح الآن غارقاً في الدين لأن تلك البضائع قد ائتمنه عليها أهل مكة، واقترح محمد ﷺ على الذين كانت البضائع في حوزتهم أن يعيدوها إلى أبي العاص إذا أحبوا فاستجاب له الجميع، وقد نصح بعض الصحابة أبا العاص أن يدخل في الإسلام ويحتفظ بتلك الممتلكات لنفسه.

لكنــه رفض قائلاً إن اعتنــاق الإسلام والشروع بخيانــة ثقة الناس لن يكــون عمــلاً لائقاً، فأخذ كافة البضائع وعــاد إلى مكة وأعطى كل ذي حق حقه، ثم عاد إلى المدينة واعتنق الإسلام واجتمع شمله بزينب ـ رضي الله عنها ـ وابنتها أمامة.

وهكــذا، فقد كان كــرم المسلمين الأوائــل واستقامتهم واضحين لجميع العيــون، فكما هو حال النبي ﷺ، فإنهم لم يطلبــوا شيئاً من أبي العاص: فهــو لم يكن مسلماً، وكان ينتمــي إلى عشيرة من أعــداء المسلمين ورفض اعتنــاق الإســلام، لكنهــم أطلقــوا سراحه، وسمحــوا له بحريــة الاختيار والوقــت اللازم لتطور مفاهيمه الروحية، بــل إنه حصل في وقت حرج من علاقــات العشائر ببعضها ـ على حماية الجماعة الإسلامية، وكانت امرأة هــي التي تحدثت علناً وبقوة دفاعاً عنه، كانــت زينب دائماً تلازم المسجد الذي كان مكاناً مفتوحاً للرجال والنساء على السواء، ولم يعترض أحد على مــا قالته في المسجد، بين الرجــال، في واقع الأمر، لم يكن من غير المألوف على الإطلاق أن تتحدث المرأة في العلن بتلك الطريقة، وفي وقت لاحق، في موقف اشتهر في تاريخ المسلمين، خاطبت امرأة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي كان قد أصبح خليفة للمسلمين، وأشارت إلى خطأ في رأي أصدره فاعترف بخطئه على الفور.

كانــت النساء تقف في المسجــد خلف صفوف الرجال حيــث إن أوضاع الصلاة، في مختلف مراحلها، تقتضي وضعاً تتم فيه المحافظة على الحياء والاحتشام والاحترام، وعلاوة على ذلك، فقد وجدوا في موقف النبي ﷺ مثــالاً للكياســة والاحترام: كان يطلــب من الرجال البقــاء في أماكنهم في

المسجـد لإفسـاح المجال للنسـاء بمغادرتـه قبلهـم دون أي مضايقة، كان تصرفـه يتسـم باللطف والوقـار إزاء النسـاء اللواتي كان يصغـي إليهن واللواتـي اعترف بحقهن في التعبير عن أنفسهن وطرح آرائهن وحججهن، وحافظ على هذا الحق وعززه.

obeikandl.com